بسم الله الرحمن الرحيم

محاضرة الشيخ / عبد الله العجيري (هكذا تألق الصحابة)

بعد المقدمة :

حين أعود إلى ذاكرتي وأفتش في نعم الله علي، فإني واجد أن من أجل نعم الله علي، أن حببني في مسألة القراءة، وعندما أعود بالذاكرة إلى المدخل الذي حببني في القراءة، فإني واجد أن من الكتب العظيمة التي أثرت في أبناء جيلي، وخلقت علاقة ودودة جدا بالكتاب: كان كتابا بعنوان (صور من حياة الصحابة للدكتور / عبدالرحمن رأفت الباشا)

وكان هذا الكتاب يوزع علينا في المرحلة المتوسطة كمادة رديفة موازية لمادة القراءة والمطالعة، وكان حجم الانتفاع بالتعلق بالكتاب كبيرا، وكان حجم التعلق بصحابة النبي صلى الله عليه وسلم كذلك كبيرا،

في ظل هذا الكتاب نشأت علاقة بالود مع صحابة النبي صلى الله عليه وسلم، وكان الإنسان يستشعر وهو يطالع كلام الدكتور الباشا؛ صحابة النبي صلى الله عليه وسلم، في عظمتهم وجلالهم بفضائلهم، وكان مع كل حرف وكلمة تزداد أواصر المحبة في القلب لصحابة النبي صلى الله عليه وسلم،

وهذه سنة سلفية كريمة، فالإمام مالك رحمه الله يقول: كانوا يعلموننا حب أبي بكر وعمر كما يعلموننا القرآن، فأحد المكونات في العملية التربوية السنية هي: تربية النشء على محبة صحابة النبي صلى الله عليه وسلم،

بعد ذلك أفضى الإنسان إلى مطالعة تفصيلية متعلقة بسير أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان الإنسان فعلا يستشعر عظمة ذلك الجيل الرباني، الذي رباه الله تعالى ورباه نبيه صلى الله عليه وسلم، كان بالنسبة لي من أكثر المشاهد إبهارا في جيل الصحابة: حين وقعت لحظة الارتطام الأولى بين حضارة الإسلام وبين الحضارة الفرس واليونانية،

إن ما حصل عند الصحابة رضي الله عنهم، نوع من الانبهار الذي جعلهم يذوبون في المعطى الحضاري لحضارة فارس والروم، يعني لما يريد الإنسان أن يعقد المقارنة بين طبيعة المدينة النبوية بعفويتها وبساطتها، وبين القصور الفارسية والرومية، ويعقد مقارنة مادية بين مدينة النبي صلى الله عليه وسلم وبين الحضارتين؛ فلا شك أن

المعطيات الحضارية المادية المتعلقة بفارس والروم تعتبر متقدمة جدا جدا، بالمقارنة ببساطة المدينة النبوية في تلك اللحظة،

خذوا هذه اللقطة التأريخية من ربعي بن عامر رضي الله عنه، ليسمع الإنسان دوي عبارات ربعي بن عامر حين حصلت لحظة التماس بين الصحابة وبين الحضارة الفارسية في معركة القادسية، رستم يجمع حوله خدمه وحشمه في مجلس فيه من البهرجة، ليوقع في نفس ربعي بن عامر استشعار الفرق الحضاري بين الأمتين، يدخل ربعي بن عامر بثوبه المرقع مجلسه، فيسأله رستم مالذي أخرجكم من جزيرة العرب أيها العرب يا من كنتم تأكلون الجعلان، مالذي أخرجكم؟

فيقول ربعي بن عامر معتزا بالإسلام: إن الله تعالى أخرجنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، لما يشاهد الإنسان اللقطة ويعقد المقارنة بين الطرفين على مستوى الماديات،

يعني لو عرض على الإنسان المشهد في التلفاز وخفض الصوت لئلا يدرك طبيعة الحوار الدائر بين الطرفين، فلا شك إنه سينظر بعين الإكبار إلى رستم وفارس، وسينظر بعين الإزدراء والاحتقار إلى الطرف الإسلامي، ارفع الصوت واسمع الكلمات تجد أن موازين القوى تتبدل جذريا.

كان السؤال يلح علي دائما مالذي ولد هذه الحال عند صحابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم؟ ما هو المعنى الذي وقع في نفوس صحابته صلى الله عليه وسلم حتى لما وقعت لحظة التماس الحضاري بين الطرفين، لم نجد منهم ذوابا في المعطى الحضاري للآخر؟

وحتى يدرك الإنسان هذه المسألة، عندنا لقطات كثيرة تعبر عن حالة من حالات الفرق المادي بين الطرفين، عائشة ضي الله عنها مثلا لما شاهدت المنخل التي جلبت من الشام، كانت تقول واصفة شأنها في زمن النبي صلى الله عليه وسلم: والله ما كنا ندري ما مناخل، الطحين الأبيض هذا ما كنا نعرفه، كنا نأخذ البر فنلقيه في الهواء فيذهب بعض قشره في الهواء ويبقى ما يبقى فيعجن ويخبز،

فالفرق كبير جدا، هذا السؤال كان دائما يلح علي وأنا أقرأ هذه اللقطات العجيبة من مواقف الصحابة وهي كثيرة، وكان دائما يلح سؤال أيضا، وهو لماذا نجد من أبناء المسلمين اليوم عندهم حالة من حالات الانبهار الحقيقي بالمعطى الحضاري للغرب؛ وعندنا حالة من حالات القابلية الكبيرة لإعادة ترتيب المنظومة العقدية والشرعية للتوافق مع معطيات الحضارة الغربية،

لماذا نجد اليوم حالة من حالات الحرج عند أبناء المسلمين من كثير من المقررات الشرعية؟ لماذا حالة الحرج تعصف بأبناء المسلمين اليوم في ظل هيمنة الثقافة الغربية؛ ما كانت حاضرة عند صحابة النبي صلى الله عليه وسلم عندما وقعت لحظة التماس،

أنا أستطيع أن أتفهم انبهار الصحابة بالقيم الشرعية لما كانوا بين نبيهم صلى الله عليه وسلم وفي مدينتهم، لكن لما حصل التماس مع الطرف الآخر ولماذا لم يقع من بعض الصحابة نوع من الانبهار بالمعطى الفارسي أو الرومي؛ بحيث قالوا: لعل النص الشرعي يحتاج إلى إعادة قراءة، لعلنا نحتاج إلى قراءة تأويلية حديثة للنص الشرعي، لعلنا نحتاج إلى نظرة مقاصدية للأحكام الشرعية، لماذا لم تقع هذه القضية؟

وبالمناسبة هذه الإشكالية؛ إشكالية الرضوخ للنماذج الثقافية المهيمنة، هي إشكالية الكل كما يقال، الكل في زمن العولمة يشتكي من هيمنة الثقافي الأمريكي على وجه التحديد، حتى الفرنسين، حتى اليابانيين، يتحدثون عن أزمتهم المتعلقة بهذه القضية،

ودعاتنا يتحدثون بألم عن واقع كثير من الشباب عندما يجدون منهم نوعا من أنواع الانبهار بالمعطى الحضاري للآخر، ثم الذوبان في ذلك المعطى الحضاري، ثم الشعور بنوع من أنواع العيب فيما يتعلق ببعض من الأحكام الشرعية القطعية، وهي منطقة الإشكال القائم والحقيقي،

حتى من الأشياء الطريفة، لما يرجع الإنسان إلى لحظة تأريخية سابقة سيجد كما يقال سنة الله عز وجل ماضية على الأمم، وأن تمثل عبارة بن خلدون حاضرة عند الكل عندما يقول: إن الأمم المغلوبة مولعة دائما بتقليد الأمم الغالبة، هذه سنة ماضية في أحوال البشرية وأحوال المجتمعات،

حتى عندما يرجع الإنسان إلى لحظة العلو الحضاري للأمة المسلمة، ستجد أن أهل الكتاب عندهم قابلية كبيرة لإعادة ترتيب منظوماتهم العقدية لتتوافق مع معطيات الحضارة الإسلامية،

من أغرب الالتقاطات التي كنت ألتقطها وأنا أقرأ كتاب هداية الحيارى لابن القيم، أو الجواب الصحيح لابن تيمية عليهما رحمة الله تبارك وتعالى، هذه اللقطة المعبرة والعجيبة، والتي لا تجد لها تمثلا في المشهد العقدي اليوم،

تحصل مناظرة بين بن القيم مع أحد أهل الكتاب من اليهود أوالنصارى، ويجري بينهما الحديث أو المحاورة في محاولة إقناع الطرف الإسلامي للطرف الكتابي، بأن محمدا صلى الله علي وسلم هو رسول من عند الله تعالى، وأن الإسلام هو دين الحق، فلعجبي! وأنا أقرأ، يعترف الطرف الكتابي بأن نبيكم نبي مرسل من عند الله تبارك وتعالى، وأنكم على خير في اتباعه، وأنكم تفضون بإذن الله عز وجل إلى الجنة إن التزمتم بهديه،

هذا الكلام لا يقوله الآن - بن تيمية أو ابن القيم - بل يقوله الطرف اليهودي أو النصراني، يقول لكن موضع الخلاف بيننا وبينكم أيها المسلمون هو في اعتقادكم أن الرسول صلى الله عليه وسلم مبعوث إلى الناس كافة، ونحن نعتقد أنه نبي أرسل إلى العرب وأن لكم نبيم الذي يتعين عليكم اتباعه، ولنا أنبياؤنا الذين علينا اتباعهم، هذا منطقة الفرق العقدي في تلك اللحظة بين الأمة المسلمة وأمة الكتاب من اليهود والنصارى،

ثم يأتي بطبيعة الحال استرسال ابن تيمية أو ابن القيم في إقناع الطرف المقابل أنكم إن أسلمتم وأقررتم بنبوته؛ لزمكم الإقرار بأنه قد بعث إلى الناس كافة، لأنه أتى في القرآن ما يدل على ذلك، وأتى في السنة كذلك،

لما يفتش الإنسان في طبيعة الموقف العقدي لأهل الكتاب في عالمنا اليوم، لن يجد من أهل الكتاب من يعترف للنبي صلى الله عليه وسلم بصحة دعوته وصدق رسالته، مالذي حمل أهل الكتاب بل بتعبير ابن تيمية فضلاء أهل الكتاب، وكثير منهم إلى الاعتقاد بهذه القضية؟

مالذي حملهم على إعادة ترتيب منظوماتهم العقدية التي كانت لها موقف سلبي من محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، للقناعة بأنه رسول من عند الله تبارك وتعالى؟

أنا أتصور أن المشاعر التي كانت تعصف بأهل الكتاب في تلك اللحظة؛ أن هذه الأمة العظيمة الجليلة المتحضرة، يستحيل أنهم يتبعون رجلا كاذبا، لا شك أن دينهم دين صحيح أتى به نبي صادق، لأنه يستحيل أن تتبع هذه الأمة رجلا كاذبا، طيب أيش المعالجة؟ نوجد حلا وسطا نعيد ترتيب منظوماتنا العقدية، نعترف لهذا الرجل بالنبوة والرسالة وصدق دين الإسلام، لكن نحتفظ بعقائدنا في ضوء أنه نبي بعث إلى العرب،

طيب لماذا لما تبدلت موازين القوى الحضارية، لم نعد نسمع مثل هذا الخطاب من أهل الكتاب في عالمنا اليوم، تجد أن موازين القوى تتبدل وتتغير، ولذا كان الإنسان يفتش دائما وهو يقرأ في سيرة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم؛ ما هو العامل الإيماني والمكون العقدي؛

ما هو الشيء وجد عند الصحابة غائب عند كثير من أبناء المسلمين؟ بحيث إذا استطعنا أن نعزز من هذه القيمة في نفوسنا، استطعنا أن نخلق حالة من حالات الحصانة من الذوبان في المعطى الحضاري الغربي، كيف يستطيع الإنسان أن يحصن نفسه من ضغط هيمنة النموذج الثقافي الغربي؟ ـ ولا شك أننا نعيش اليوم في عالم تغلب عليه الأمزجة الليبرالية، هذه إشكالية حقيقية عميقة ـ

الجواب: من خلال مطالعة وقرءاة، وجدت أن المعنى الإيماني العميق الذي وجد عند صحابة النبي صلى الله عليه وسلم؛ ـ وهي السمة المركزية المميزة لجيل الصحابة على سائر أجيال المسلمين التالية ـ هو أن حجم انقيادهم واعتزازهم وتسليمهم وخضوعهم لله تعالى ولنبيهم صلى الله عليه وسلم، كان يمثل مستوى إيمانيا شديد الرفعة،

كان عندهم قدر عال من تعظيم الوحي، كان عندهم قدر عال من الإذعان والتسليم لمعطيات الكتاب والسنة، كان موقفهم واضحا في ضوء التصور السلفي، من الله عز وجل الرسالة، ومن النبي البيان، وعلينا التسليم. كان هذا هو الوظيفة المنهجية التي تصورها أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عن ذواتهم، تصوروا أن الله تعالى

أرسل الرسول، وعلى الرسول أن يبين لنا شريعة الله تعالى، والدور المناط بنا أن نسلم للرسول، القضية كانت واضحة شديدة الوضوح،

دعونا نأخذ سريعا بعض الالتقاطات المعبرة عن هذه الفكرة عند الصحابة، حتى نقتنع فعلا بمركزية هذه القضايا في الجيل الأول، ولنستيقن أن هذا المكون العقدي هو المكون المميز لصحابة النبي صلى الله عليه وسلم مقارنا بكل الأجيال المسلمة التالية، وهو المكون الذي حصن صحابة النبي صلى الله عليه وسلم، من الذوبان في المعطيات الحضارية للأمم السابقة لزمانهم،

نبدأ بسيد صحابة النبي صلى الله عليه وسلم وأفضلهم وصديقهم وتاجهم أبي بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه، تبتدأ الحكاية بطبيعة الحال مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، النبي صلى الله عليه وسلم أكرمه الله بالإسراء إلى بيت المقدس والمعراج إلى السماء ثم يعود إلى مكة، كما في حديث بن عباس رضي الله عنهما، الذي يروي مشاعر النبي صلى الله عليه وسلم الأولى ومقولاته الأولى،

فيقول النبي صلى الله عليه وسلم: عندما أسري بي إلى بيت المقدس وعرج بي إلى السماء وأصبحت في مكة ففظعت بأمري علمت أن الناس مكذبي، ويحكي بن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أصبح بمكة مهموما حزينا، أنا لا أخفيكم كلما قرأت هذا الشق من سيرته صلى الله عليه وسلم؛ أتعجب من ردة فعل النبي صلى الله عليه وسلم من هذه الكرامة الإلهية المذهلة التي أجراها الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم.

يعني كان المظنون بالنبي صلى الله عليه وسلم عندما أكرم بهذه النعمة، أسري به إلى بيت المقدس فأم به الأنبياء، ثم إلى السماء فرأى الأنبياء وحاورهم، ثم إلى الله تعالى فكلمه الله تعالى وفرض عليه الصلاة ويرى من آيات ربه الكبرى؛ كان المتوقع أن مشاعره عليه الصلاة والسلام بهذه النعمة مشاعر الفرح والسرور بعظيم نعمة الله تعالى عليه،

والعلماء أصلا يتحدثون أن جزءا من حكمة الله تعالى في الإسراء والمعراج هو التسلية عنه صلى الله عليه وسلم، بعد عام الحزن وتكذيب أهل الطائف، ومع ذلك لكمال شفقته صلى الله عليه وسلم بالناس وكمال رحمته بهم، يعلم أنه رسول من الله تعالى وأنه متعين عليه أن يبلغ الناس بهذا الخبر المهول الكبير، ويعلم أن الناس سيكذبونه، فرحمة بهم أصبح مهموما حزينا من تكذيبهم له،

يقدر الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم أن أول رجل يمر به وهو في هذه الحال من الهم والحزن أبو جهل، أبو جهل أول من مر به، وفي الرواية أنه قال له كهيئة الساخر به، يعني يورد عليه سؤال وليس مقصود السؤال الجدية في جواب النبي صلى الله عليه وسلم، قال له يا محمد هل كان من شيء؟

يعني هل عندك وحي جديد أو خبر جديد؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم نعم، قال وماذاك؟ قال صلى الله عليه وسلم: أسري بي الليلة إلى بيت المقدس ، فقال أبو جهل مقاطعا وأصبحت بين ظهرانينا، فقال له النبي

صلى الله عليه وسلم: نعم، فقال أبو جهل يا بن أخي، تغيرت نغمته لخبثه، فكان أولا يسخر به صلى الله عليه وسلم ثم تغيرت لهجته فقال: إن جمعت لك قومك أتحدثهم بما حدثتني به، فقال النبي صلى الله عليه وسلم نعم،

فبدأ أبو جهل ينادي أهل قريشا ويجمعهم حول النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قال بخبثه للنبي صلى الله عليه وسلم يا بن أخي حدثهم بما حدثتني به، طبعا واضح أن أبا جهل يريد أن يسجل نقاطا لصالح الكفر الذي هو عليه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لقد أسري بي إلى بيت المقدس، فكان جوابهم كجواب أبي جهل وأصبحت بين ظهرانينا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم نعم،

يقول الراوي وتأملوا هذه الرواية العجيبة يقول: فما بين ضارب كفا بكف وما بين واضع كفيه على رأسه، فالذي ضرب كفا بكف واضح أنه يتهمه عليه الصلاة والسلام بالجنون، والذي يضع يده على رأسه يتهمه بالكذب،

يقول الراوي في تتميم القصة ومجادلة النبي صلى الله عليه وسلم لهم، وكرامة الله له عليه الصلاة والسلام بجملة من المعجزات وخوارق العادات، من إطلاع قريش على تفاصيل لبيت المقدس وآيات أخر،

لكن الشاهد ونحن قصتنا متعلقة بأبي بكر، وذهاب سرعان من الناس لأبي بكر قائلين له: هل علمت ما قال صاحبك؟ قال وما قال؟ قالوا: يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس وأنه أصبح بين ظهرانينا،

العجيب في الرواية أن البي صلى الله عليه وسلم إلى الآن لم يبلغهم بالقصة كاملة، بمجرد ما أخبرهم قالوا وأصبحت بين ظهرانينا، إلى الآن قضية المعراج ما نوقشت، لكن نقلوا الخبر إلى أبي بكر، فقال أبو بكر رضي الله عنه وأرضاه عبارة منهجية شديدة التعبير عن دين الإسلام بل شديدة التعبير عن منهج أهل السنة والجماعة،

لو أراد الإنسان أهم اقتباس سلفي معبر عن روح أهل السنة والجماعة، فأعتقد أن هذه العبارة التي ينبغي أن تكتب بماء العيون بماء الذهب، هي المعبر الأعمق لهذا الدين وعن رؤية أهل السنة والجماعة في التعاطي مع النص الشرعي، قال أبو بكر رضي الله عنه وأرضاه: إن كان قد قاله فقد صدق، فقالوا له متعجبين عجبا لك يا أبا بكر، تصدقه في مثل هذا، هل يوجد عاقل يصدق مثل هذا؟ فقال إني أصدقه بأعظم من ذلك أصدقه بخبر السماء ليلا ونهارا،

أصدقه بنزول الوحي إليه في لحظة واحدة من السماء، هذه العبارة التي أطلقها أبو بكر في شقها الأول المنهجي (لئن كان قاله فقد صدق) هي تعبر عن فكرة أساسية في منهج أهل السنة والجماعة، أن المسلم قصارى تعاطيه مع خطاب الله تعالى وخطاب رسوله صلى الله عليه وسلم، هو ثبوته عن الله ورسوله.

إن ثبت الخبر عن الله عز وجل وعن رسوله صلى الله عليه وسلم فهو خبر يجب أن يصدق، أبو بكر لو أراد إنسان أن يفكك موقفه العقدي في تلك اللحظة، هو لم يؤمن بحادثة الإسراء والمعراج، هو علق إيمانه بهذه

الحادثة، ليس على معطيات تتعلق بطبيعة الخبر في حد ذاته، بقدر ما يتعلق الخبر بثبوته عن النبي صلى الله عليه وسلم،

إن ثبت الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم فعلا، وكنتم صادقين في نقل الخبر، فما يهمني تفاصيل الخبر، الذي يهمني هو خروج هذا الخبر من شفتي النبي صلى الله عليه وسلم، هذه العبارة الأولى،

العبارة الثانية: تعبر عن فكرة عميقة في منهج أهل السنة والجماعة، وهو عقلانية منهج التسليم، بعض الناس يظن لما ندعوه إلى تمام الإذعان والانقياد والتسليم والخضوع لمعطى الوحي، يتوهم أن هذا موقف مبني على نوع من أنواع الإيمان الأعمى، قفزة إيمانية عمياء ليست معبرة عن موقف عقلاني،

لا، المعنى معنى شديد العقلانية، أبو بكر يقول: إني أصدقه بأكبر من ذلك، أصدقه بخبر السماء يأتيه في لحظة، لسان حال أبي بكر يقول: أنا صدقت أن هذا الرجل رسول من عند الله تبارك وتعالى، وإذا كان رسولا من عند الله تبارك وتعالى، فهو متصف بصفة العصمة، لأن عصمته عليه الصلاة والسلام ضمانة من عدم دخول الخلل على الخبر،

أوجه دخول الخلل على الخبر من جهتين: إما أن يكون من جهة الوهم والغلط، وإما من جهة تعمد الكذب، الرسول صلى الله عليه وسلم معصوم من الجهتين، وبالتالي كل ما يخرج منه صلى الله عليه وسلم هو حق يجب أن يقبل،

فإذا اعتقد الإنسان في ضوء الدلالات الشرعية والعقلية أن محمد بن عبد الله رسول من عند الله عز وجل، فمتعين عليه أن يسلم له، هذه الفكرة الأساسية يريد أبو بكر أن يعرضها بهذه العبارات المختصرة،

وحتى يدرك الإنسان ضخامة حادثة الإسراء والمعراج، من الضروري أن يقرأ هذا الحدث؛ لا في ظل المعطيات الفنية والتقنية للأمة اليوم، يعني الإشكالية لما يقرأ أحدنا خبر الإسراء والمعراج اليوم في ظل وجود الطائرات ووجود إمكانيات الإنسان اليوم، في ظل قدرة الإنسان على أن ينتقل من رقعة جغرافية إلى رقعة جغرافية، ثم يصبح بين ظهراني أهله في نفس اليوم، لم يعد العقل البشري في هذا الزمان يستبعد إمكانية أن ينتقل الإنسان إلى بيت المقدس ويصبح بين ظهراني أهله،

لكن ضروري أن يتعاطى الإنسان مع مثل هذا الخبر في ظل الإمكانيات الفنية والحضارية والتقنية لأوضاع الناس في ذلك الزمان، حتى يعرف الإنسان لماذا وقع الخبر على قريش بهذا الوقع المهول، إلى درجة كما حكت عائشة رضي الله عنها هذا الخبر العجيب، أن ثمة من آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم ارتد عن الإسلام لما وقع هذا الخبر على مسامعه، وحتى يعرف الإنسان جلالة أبي بكر رضي الله عنه واستحقاقه لهذا اللقب الذي لقب به على إثر هذا الحادث فلقب بالصديق،

والذي ندركه جميعا أن أجل المقامات لنا جميعا في مقامات الإيمان هي مقامات الصديقية، أجل مقامات الإنسان على الإطلاق أن يكون رسولا أو نبيا من عند الله تعالى، هل يستطيع الإنسان أن يصل إلى هذه الرتبة عن طريق تعبده واجتهاده الذاتي لله تعالى؟ لا، لا يستطيع العبد الوصول إلى تلك الرتبة، مهما بذل لا يصل إلى تلك المقامات، لأنها اصطفاء إلهي،

طيب ما هي المقامات التي يستطيع الإنسان أن يحمل نفسه ويجاهدها على الوصول إليها؟ مقام الصديقية وهي الرتبة التالية لمرتبة النبوة مباشرة، كيف يصل الإنسان إلى مقام الصديقية؟ بتكميل وتتميم تسليمه لله تبارك وتعالى،

ابن القيم في منزلة التسليم في كتابه مدارج السالكين، يتكلم عن هذه الحقيقة، ويعبر بعبارة تقرن بين التسليم وبين الصديقية بعبارة جميلة فيقول: وأكمل الناس صديقية أكملهم تسليما، كلما أردت أن ترتقي في منازل الصديقية كمل تسليمك لله تبارك وتعالى،

ننتقل إلى قصة أخرى للصديقة بنت الصديق عائشة رضي الله عنها وأرضاها، في خبر طريف رواه أهل السنن وحسنه الشيخ مقبل الوادعي والأرناؤوط، قالت قبض على أسير وأتى به النبي صلى الله عليه وسلم وتركه في حجرة عائشة، وقال يا عائشة احفظي عليك هذا الأسير، لئلا يهرب عند انشغاله عليه الصلاة والسلام،

خرج النبي صلى الله عليه وسلم لبعض أشغاله، ودخل بعض النسوة فشغلن عائشة بحديثهن فتغافلهن الأسير وهرب من الدار، دخل النبي صلى الله عليه وسلم على عائشة يسألها أين أسيرك؟ فقالت بكامل براءتها يا رسول الله نسوة دخلن علي فلهيتني عنه حتى ذهب،

النبي صلى الله عليه وسلم في حال غضبه قال لها: مالك قطع الله يدك وخرج من عندها، فاجتمع المسلمون وبحثوا عن الأسير وقبض عليه مرة ثانية، ودخل النبي صلى الله عليه وسلم على عائشة ناسيا الكلمة التي جرت منه لعائشة رضي الله عنها، فوجد عائشة تفعل فعلا غريبا جدا، وهو أنها رافعة كفيها وتنظر فيهما وتقلبهما، النبي صلى الله عليه وسلم تعجب منها وقال مالك يا عائشة أجننت؟ فقالت دعوت علي فأنا أنتظر أي يدي تقطع أولا، فلسان حال عائشة كلسان حال الصديق أبي بكر لئن كان قاله فقد صدق، فما دام دعا عليها النبي صلى الله عليه وسلم فلا بد من أن يتحقق.

أنا أتعجب من مواقف الصحابة، ومن مزاج عائشة وعقليتها أنها ما تخيلت الموضوع كما يقال في إطار سنني أو قانون مادي حياتي، كنت أتخيل أن الإنسان لو قيل له قطع الله يدك لقال موضوع المطبخ والسكاكين ينبغي ألا يقاربه الإنسان، لأنه قد يقطع شيئا معينا وبالغلط يقطع يده، أما أن يصل الإنسان في حالة اليقين في هذ المقام الإيماني أن هذه القضية لا تستدعي سنة وقانونا ماديا، إنما يمكن أن تسقط اليد هكذا بشيء خارق للعادة،

فعائشة لما كانت تنظر تقول أنا أنتظر أي يدي تقطع أولا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم مطمئنا زوجه والمؤمنين: اللهم إني بشر آسف كما يأسف البشر ـ يعني يصيبني الغضب الشديد كما يصيب الناس ـ اللهم أي

مسلم دعوت عليه أو سببته فاجعله له كفارة، فيسأل النبي الله تعالى أن يقلب الدعوة من دعوة على ذلك الصحابي أن تكون دعوة له وكفارة،

الموقف الثالث:

لأحد الصحابة غير المشهورين كثيرا وهو معقل بن يسار رضي الله عنه، وله موقف مذهل في حمل النفس على كمال الانقياد والتسليم لأمر الله تعالى، وأسوء شيء كما يقال المواقف هو حمل النفس على خلاف العادات والأحوال الاجتماعية، لأن سطوة العرف والعادات الاجتماعية سطوة كبيرة جدا على النفس الإنسانية، كيف يستطيع الإنسان أن يخترق هذه القضية، ويحمل نفسه حملا على التسليم لخبر الله تعالى ولخبر رسوله صلى الله عليه وسلم، وأمر الله ورسوله، هذا مقام إيماني رفيع جدا،

يقول رضي الله عنه: زوجت أختي رجلا من المسلمين فكانت عنده ما كانت ثم طلقها تطليقة ولم يراجعها حتى انقضت العدة. وبعد العدة لا بد من عقد جديد لأنها بانت منه بينونة صغرى، قال فهويها وهويته فوضع يده مع الخطاب، فتقدم لخطبتها مرة أخرى، تخيلوا هذا الموقف وتداعيات الطلاق على الأسرة، بحيث لو رأيت من طلق قريبة لك أنك لو رأيته قد لا تسلم عليه محتفيا به كأنه لم يحدث شيئ، ردة الفعل الطبيعي البعد عنه وإيهامه أنه لم يره،

تخيل هذا الرجل طلق أختك ثم في يوم أتاك إلى البيت فأدخلته البيت وسألته ماذا يريد فقال إنه يريد نكاح أختك مرة أخرى، ولهذا ردة فعل معقل رضي الله عنه طبيعية بشرية ومعروفة عند الناس، قال له: يا لكع زوجتك بها وأكرمتك بها ثم طلقتها والله لا ترجع إليك أبدا آخر ما عليك، قال معقل: فعلم الله تعالى حاجتها إلى زوجها وحاجته إلى زوجته فأنزل الله تعالى (وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن ...) ما هو الإيمان عند هذا الرجل الذي يتنازل عن حقه ويترك مشاعره من أجل تطبيق شرع الله تعالى.

سبحان الله لما أقرأ قصص الصحابة تظل القصة تذهلني إلى آخرها، يعني لما أتخيل التسليم والإذعان وسمعا لربي وطاعة سأزوجه إن رجع ويسر الله، أما أني أذهب إليه وأدعوه كما فعل معقل وقال أزوجك وأكرمك، فهذا تجاوز نفسي كبير جدا، لأنه ليس مأمورا بالذهاب إليه ودعوته إلى تزويجه، بل يكفي أنه يزوجه ويكرمه، إن كان الشخص فطنا بعد نزول الآية سيذهب ويخطبها مرة ثانية، ولا يحتاج إلى الذهاب إليه ودعوته لتزويجه، لكن ذهاب معقل إليه ودعوته لتزويجه مقام إيماني رفيع، وهذا الكلام عن معقل رضي الله عنه وهو ليس بالمشهور شهرة كبيرة ولا تعلم تفاصيل سيرته،

الموقف الرابع:

وهو موقف فيه مواقف كثيرة لكني أختار منه موقفا واحدا، ليبين كيف كان الصحابة يتفاعلون مع النبي صلى الله عليه وسلم في مزاحه، كانوا يتلقون كل كلمة منه عليه الصلاة والسلام على أنها حق وهي حق، لكن كانوا

يسلمون تسليما غريبا، وإذا ذكرنا موقف أبي بكر وعائشة ومعقل، نذكر قصة امرأة عجوز لا نعرف اسمها، لماذا نذكر هذا؟

لنبين أن هذا روح سارية عند أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، ليس مختصا بأصحاب المقامات العالية من الصحابة، هي مقام إيماني كان يمارسه كثير من الصحابة بقدر من العفوية والبراءة، عجوز تقول يا رسول الله أدع الله أن يدخلني الجنة فيقول لها النبي صلى الله عليه سلم (إن الجنة لا يدخلها عجوز) فأخذت تبكي، لما يحلل الإنسان ظاهرة بكائها، واضح أنها تبكي لأنها أخذت هذا الخبر النبوي بأنه صدق وحق،

العجيب في الموقف أنها لم يطرأ عليها صورة من صور الاعتراض، يعني لو أن واحدا منا أكرمه الله تعالى وجلس بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم وخاطب النبي، وقال يا رسول الله أدع الله لي بدخول الجنة، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: إن الجنة لا يدخلها عجوز ـوهو عجوز على سبيل المثال ـ أيش يكون ردة فعله الطبيعية التي تتوقع من واحد منا؟

أتوقع أنه سيقول يا رسول الله هذا ظلم، والله الذي قدر علي أن أصبحت عجوزا ولا ذنب لي، فهذا الجواب النبوي أليس المفترض أنه يطرح شبهة أو إشكالا عند الصحابة، فيقولون لماذا يا رسول الله؟ يعني متفهمين أن الله تعالى يؤاخذنا على تقصيرنا وذنوبنا، لكن مجرد أن يقدر علي بلوغ هذه السن يكون موجب لعدم دخول الجنة، المفروض يطرح هذا السؤال من العجوز ومع ذلك لم تطرح العجوز هذا السؤال بل لم تورد أي استشكال، طيب عدم طرح السؤال والبكاء هو معبر عن شديد تسليمها لله عز وجل ولرسوله، نفس المعنى الذي قاله أبو بكر إن كان قاله فقد صدق،

ما هي الخيارات المتاحة لها في الدنيا؟ البكاء لأنه ليس محرما عليها وقد بكت رضي الله عنها، ثم جلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لها الموقف، وقال أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز (إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكارا) فارتفع الإشكال والحمد لله لكن الغريب الموقف، وغريب أن الموقف هذا ليس صادرا من الصحابة المشهورين بل من عجوز لا نعرف من هي رضي الله عنها. هذه المواقف كلها تعبر عن مواقف تفصيلية دقيقة لأفراد وآحاد صحابة النبي صلى الله عليه وسلم،

فإذا ارتقى الإنسان إلى طبيعة المجتمع الإسلامي يجد نفس الفكرة، المجتمع الإسلامي يعبر عن مجتمع شديد المحافظة مجتمع مسلم لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم، نعرف كثيرا من الأخبار والقصص مثل هذه، لما يأتي تحريم الخمر (إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس ... فهل أنتم منتهون) الآيات . انتهينا ربنا انتهينا،

الذي يعرف السياق الجاهلي يعرف طبيعة توغل عادة شرب الخمر، ليس عند عرب الجاهلية، حتى عند الصحابة، من القصص الطريفة كما في البخاري في حمزة رضي الله عنه ، علي رضي الله عنه خطب فاطمة فأكرمه النبي صلى الله عليه وسلم بالقبول، فجعل علي يجهز جهاز فاطمة ومن ضمن الجهاز ناقتين، خرج علي يوما ففوجئ بهما

مذبوحتين، قال علي فلم أملك نفسي فبكيت فسألت من فعل هذا قالوا حمزة، فذهب إليه علي فوجده سكرانا لا يدري بشيء وذلك قبل تحريم الخمر،

فذهب علي يشكو إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقام النبي صلى الله عليه وسلم إلى حمزة وقام على رأسه وقال ما فعلت يا حمزة؟ قال الراوي فرفع حمزة رأسه إلى النبي صلى الله عليه وسلم وكان محمر العين فصعد النظر وخفضه وقال وهل أنتم إلا عبيد لأبي، فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم على تلك الحال خرج من الدار، لأنه على حال لا يمكن الكلام معه، نذكر هذه القصة ليس انتقاصا لأنها لم تكن محرمة، وليس عليه أدنى مؤاخذة رضي الله عنه، لكن نتكلم أن هذه العادة لم تكن حاضرة حتى في المجتمع المدني كان يشرب حتى بعض الصحابة، وكانت عادة شديدة اللصوق بالجاهلية،

ردة فعل الصحابة عندما نزلت هذه الآية ردة فعل مذهلة، يقول الراوي: فجرت في سكك المدينة، مما يدل على كثرة الخمر، ويدل على مباشرة الصحابة لذلك، أنس بن مالك يقول كنت ساقي القوم فأتى رجل فقال : ألا إن الخمر قد حرمت، تخيل أن الإناء مليء بالخمر والرجل يشرب منه وليس بإدراكه الكامل، فتبلغه الآية فقبل أن يصل الخمر إلى شفتيه يصبه ولا يشربه، فهذا موقف إيماني رفيع، وأنت لا تتكلم عن أفراد بل تتكلم عن الموقف الاجتماعي العام، المجتمع الإسلامي كيف كان يتعامل ويتغير مع تنزل الآيات القرآنية، أمهات المؤمنين وزوجات المؤمنين لما نزلت آيات الحجاب، قالت عائشة رحم الله نساء الأنصار لقد خرجن كأن على رؤوسهن الغربان من الأكسية، تحول المجتمع مباشرة، ظاهرة الحجاب لم تكن حاضرة بهذا الشكل ثم فوجئنا بأن المسألة انقلبت رأسا على عقب،

النبي صلى الله عليه وسلم يحدث جمهور الصحابة فما تجد من واحد منهم اعتراض على خبر النبي صلى الله عليه وسلم مع غرابة الخبر، يقول النبي صلى الله عليه وسلم متحدثا عن الدجال: يمكث في الأرض أربعين يوما يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وبقية أيامه كأيامكم، تخيلوا أن النبي صلى الله عليه وسلم يتحدث أن الأربع والعشرين ساعة ستمتد لتغطي سنة كاملة، فهو خبر عجيب، ألا يستدعي سؤال الصحابة يا رسول الله كيف، هذه سؤالات أنا أزعم أن كثيرا من أبناء المسلمين اليوم ليست نفوسهم صافية لمثل هذا الحديث النبوي،

الصحابة كانت نفوسهم من الصفاء بحيث لم نجد واحدا منهم يعترض على هذا الحديث النبوي، قصارى ما سألوا النبي صلى الله عليه وسلم مما يؤكد على كمال تسليمهم لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم، قالوا ذاك اليوم الذي كسنة تكفينا فيه صلاة يوم، قال ولكن اقدروا له قدره، يعني مسلمون للخبر، متجاوزون مشكلة أربع عشرين ساعة تتحول إلى سنة كاملة فليست هذه المسألة، المسألة عن صلاة ذلك اليوم كسنة،

هذا المستوى الإيماني الرفيع الذي حققه الصحابة في مقام التسليم سيفرض علي سؤالا آخر، مالذي ولد هذه الحالة الإيمانية الرفيعة، هل هو مجرد اصطفاء إلهي، هل هو معنى قذفه الله عز وجل في قلوب الصحابة؟ الذي

وجدته من خلال الملاحظة والملاحقة والدراسة، أن المسألة عبارة عن تربية إلهية وتربية نبوية رسخت هذه القضية في نفوس الصحابة،

أنا مع نظرة أعتقد أن بثها بين الدعاة في غاية الأهمية، ينبغي أن نكون أرحم بالناس، نحن أحيانا نطالب الناس بمقامات إيمانية رفيعة جدا، لكن المستوى التربوي الذي بذل لاستخراج هذه المقامات الإيمانية لم نمارسه حقيقة، في حين لما يقارن الإنسان بين الدورة الإيمانية التي مورست على صحابة النبي صلى الله عليه وسلم التي استخرج من خلالها مثل هذه المقامات الإيمانية، يستطيع الإنسان أن يتعقل لماذا وصل صحابة النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا المقام الرفيع في تحقيق مقام التسليم والإذعان والخضوع لخبر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم،

لما يستشرف الإنسان هذه القضية دائما يقفز للذهن ثلاثة مواقف أساسية أقامها الله عز وجل، وكأنه لم يقمها إلا من أجل تربية الصحابة على هذه القضية، قضية التسليم لله تبارك وتعالى، وترسيخ هذه العبودية وهذه القيمة في نفوسهم،

الموقف الأول:

موقف الإسراء والمعراج وقد تحدثنا عنه تفصيلا، والذي يكشف عن أهمية حدث الإسراء والمعراج كحدث ابتلائي في قضية التسليم لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، قول الله عز وجل (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس)

قال المفسرون: قوله (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك) هو ما أريه النبي صلى الله عليه وسلم في إسرائه ومعراجه، يعني يكشف الله تعالى لنا أن جزءا من حكمته تعالى في الإسراء والمعراج وما أراه الله تعالى لنبيه من آياته الكبرى، المقصود به الامتحان والاختبار وجعله فتنة للناس، وكان ذلك فمن الصحابة من صدق وبلغ الذروة الإيمانية كأبي بكر الصديق، وبعضهم ـ وهو قليل ـ خسر وسقط في ذلك الامتحان.

الموقف الثاني:

وهو موقف عجيب وبالذات لما يقرأ الإنسان ما جاء فيه من الآيات، وهو موقف تحويل القبلة، أنا لا أخفيكم لما كنت أقرأ حدث تحويل القبلة، كانت دائما هذه الآيات تصيبني بالذهول والاستغراب، لست قادرا أن أفهم طبيعة هذه الآيات القرآنية المتعلقة بهذا الحدث،

ولنستعرض سريعا بعض هذه الآيات حتى تستشعروا ما استشعرته في هذه الآيات، يقول تعالى ودققوا في هذه الآيات، آيات أنا أعتبرها عجيبة وغريبة وآيات استثنائية في القرآن الكريم، في مخاطبة الجيل الأول في حدث في

تقييمي لا يعبر حقيقة عن مركزية الإيمان والتسليم، ومع ذلك تلاحظون أن الآيات تعبر عن روح مختلفة في التعاطي مع ذلك الحدث، وفيها نوع من أنواع التهويل لحدث كبير، لما أستعرض هذه القضية لا أجد نفسي متفهما حالة التهويل الموجودة في هذه الآيات، حتى يستكشف الإنسان وجه الجواب عن هذا الإشكال،

قال الله تعالى في بدء الآيات (سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها....) الملاحظة الأولى أن ثم نوع من أنواع التهيئة والتوطئة على استقبال نوع من أنواع الاستشكال، نوع من أنواع الاعتراض، (سيقول السفهاء من الناس...) قال الله عز وجل(قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وكذلك جعلناكم أمة وسطا.... ممن ينقلب على عقبيه)

يعني يكشف الله تعالى أن القصد من تحويل القبلة الابتلاء والاختبار للناس، ليعلم الله تعالى من يتبع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ممن ينقلب على عقبيه، لما كنت أقرأ هذه الشق من الآية كنت أتعجب وأقول بصراحة: لو أمرني النبي صلى الله عليه وسلم بشكل مباشر أن أستقبل هذه القبلة في صلاتي ثم أمرني أن أتحول إلى هذه القبلة، لا أخفيكم على المستوى الذاتي الشخصي لا أجد كبير حرج، لا أحس أنها قضية كبيرة أمرني رسول أن أفعل هذا الفعل أفعله، أمرني أن أتحول إلى هذه الجهة أتحول إلى هذه الجهة، وأزعم أن نفوس كثير من الناس سواء في هذه القضية،

لا يعرف الإنسان ماهي أوجه الاعتراض على هذه القضية، يعني قد يوجد ما قد يستشكله الإنسان من الأحاديث والآيات، لكن حدث تحويل القبلة كانوا يستقبلون بيت المقدس ثم أمروا بالتحول إلى الكعبة، ولاحظوا كانت النفوس مهيئة لهذه القضية، النبي صلى الله عليه وسلم كما سيأتي في الآيات (قد نرى تقلب وجهك في السماء) ماذا كان يقلب أي ينظر في السماء؟ كان يتمنى أن يحول إلى الكعبة، وكان الصحابة مدركين هذه القضية، البراء بن عازب رضي الله عنه كان يتحدث عن هذه القضية، وأن النبي صلى الله عليه سلم كان يتمنى أن يحول إلى قبلة إبراهيم عليه السلام، فكان الموقف بالنسبة للصحابة مدركا،

ومع ذلك لاحظ طبيعة المعالجة الإلهية ومعالجة النفوس وتهيئتها مما سيقال لكم، فيبين الله تعالى أن هذا الأمر هو ابتلاء وامتحان ليعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه، في حالة ارتداد عن الإسلام لتحويل القبلة، هناك أحكام شرعية أكبر قد تستشكل كما سبق لكن تحويل القبلة يستدعي هذا المقام الإماني الرفيع، تأملوا يقول تعالى (وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله) ترى التسليم لهذا المقام الإيماني أمر كبير، ولا يوفق للتسليم لهذا المقام الرفيع إلا من هدى الله، إلى الآن وأنا أقرأ الآيات لم أفهم بواعث هذه الحالة،

يقول تعالى (وما كان الله ليضيع إيمانكم... قد نرى تقلب وجهك في السماء) عدوا معي (فول وجهك شطر المسجد الحرام) الآن لما يأمر الله تعالى نبيه باستقبال المسجد الحرام، أليس هذا الخطاب لنبيه كاف في خطاب الأمة؟ يعني إذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم باستقبال الكعبة وهو الإمام، إمامنا في الدنيا وإمامنا في الآخرة، ألا يفهم

الصحابة أنهم كذلك أنهم مأمورون باستقبال القبلة؟ لكن الله تعالى قال (وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره) فأمر النبي صلى الله عليه وسلم، هذا واحد. ثم قال للأمة هذا الثاني، ثم قال تعالى (وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون.... الآيات إلى قوله (ومن حيث فول وجهك شطر المسجد الحرام) هذه المرة الثالثة ، ثم قال (ومن حيث خرجت فَوَلّ وجهك شطر المسجد الحرام) المرة الرابعة، (وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره) الخامسة (لئلا يكون للناس عليكم حجة ... الآية)

تلاحظون الآيات ويؤكد الله تعالى على ضرورة خشيته تعالى وحده، وضرورة أن يتحول إلى القبلة الجديدة، (فلا تخشوهم) ما هي القضية ما هو الموجب لحالة التمنع من قبول هذا الحكم الشرعي؟ ما الإشكالية الطارئة الموجودة؟

يقول تعالى (ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون، كما أرسلنا فيكم رسولا ... الآيات..)

تخيلوا حكم تحويل القبلة استغرق تقريبا صفحتين من المصحف، ويكرر الأمر الإلهي فول وجهك، فولوا وجوهكم، تحس هذا التكرار غريب جدا، يعني هذا النمط من التشريع الإلهي ليس له نظير في الوحي، يعني حتى الآيات القرآنية اللاحقة لن يجد الإنسان ما يدل على هذه المعالجة الإلهية التي تستدعي حالة من حالات التسليم والإذعان والانقياد الرهيبة والكبيرة،

الذي حل عندي اللغز هو أثر من آثار عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، فقد كنت أقرأ الآيات وأستغرب وأفتش في كتب التفسير والحمد لله وجدت الجواب، الجواب باختصار كما يقول بن عباس: وكان ذلك أول ما نسخ من من القرآن، يعني وين الإشكال الذي طرأ؟

فكرة النسخ ما دخلت بعد في المنظومة الأصولية عند الصحابة، يعني فكرة النسخ وتبدل الأحكام الشرعية تدرجا تبعا للحكمة الإلهية، هذه القضية لم تكن واردة على الأذهان بتاتا، وبالتالي لما طرأ تغيير الحكم حصلت الإشكاليات والشبهات المتعلقة بهذه القضية،

سيأتي اليهود الذين يعتقدون عدم جواز النسخ على عز وجل ويثيرون إشكاليات وشبهات، فيقولون لماذا تغير الحكم؟ هل كان الحكم الأول باطلا ثم تبين الحق؟ لما يكون الإسنان غير مهيئ لاستيعاب مبدأ النسخ، ستطرأ حالة الممانعة التي تستدعي حالة المعالجة المعمقة لهذه الظاهرة، ولهذا من الأسئلة الطريفة التي أوردها أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم،

سؤال عن الصحابة الذين ماتوا كانوا يصلون إلى بيت المقدس، ما حكم صلاتهم عند الله تعالى؟ بل ما حكم صلاتنا نحن إلى بيت المقدس، نحن الآن هل طرأ في بالنا هذا الإشكال لما حولت القبلة؟ ما هو رأينا في الصلاة السابقة؟ سيكون الحكم السائد أنه الحمد لله إنها صلاة وحسنة مقبولة، والذي توجهنا إليه الآن حسنة مقبولة، وأنه كما قال تعالى (وما كان الله ليضيع إيمانكم)

لماذا كان الإشكال طارئا على الصحابة في هذه القضية؟ لأن فكرة النسخ ومبدأ النسخ لم تكن حاضرة فاستدعت هذه الحالة الإيمانية، لكن منطقة الشاهد من هذه القصة، أن من أجل المواقف التي هيئت نفوس الصحابة لاستقبال الأوامر الإلهية تفصيلا مثل هذا الحدث العظيم، ولهذا آتت مثل هذه الحال ثمرتها،

فلما تأتي إلى الآيات التي حرم الله تعالى فيها الخمر وهي من الشريعة المنسوخة، فالذي حصل من الصحابة، هل استدعى التكرار كما في القبلة؟ لا ، سيقت الآيات في تحريم الخمر (إنما الخمر والميسر ...) وحصل من الصحابة قدر عال من العفوية واستقبال الحكم انتهينا ربنا انتهينا وسكبوا الخمور، لماذا حصلت استجابة كاملة؟ لأنهم مروا بتلك الدورة الإيمانية التربوية العميقة في ترسيخ ذلك المبدأ في مثل حادثة القبلة،

الحادثة الأخيرة:

وهي حادثة تعبر عن أعمق وأعوص القصص والأخبار في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، المعبرة عن ترسيخ هذا المبدأ في نفوس الصحابة، لما يستعرض الإنسان كل الحوادث النبوية، فدائما الذي يقفز إلى ذهني في أعمق المعالجات الشرعية لظاهرة التسليم لله ورسوله هي هذه الظاهرة، ويستطيع الإنسان أن يقرأ هذه الحادثة ويخصص لها محاضرة كاملة، يقرأها فقط من زاوية التسليم لله ولرسوله،

يعني ما هي هذه الالتقاطات المتعلقة بهذا الموضوع؟ التسليم لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم، من هذا الخبر الهائل العظيم الجليل،

حادثة صلح الحديبية:

لا نقدر على سرد الحادثة تفصيلا لضيق الوقت، لكن سنقفز إلى آخر هذه الحادثة، لا بد للإنسان وهو يستصحب في هذه الحادثة مشاعر الصحابة النفسية والعاطفية الموجودة عندهم، كما يقال كانت حادثة الحديبية حرب أعصاب، يعني لك أن تتخيل أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم حرموا زمانا طويلا من الكعبة والعمرة ومن وطنهم،

والنبي صلى الله عليه وسلم وعدهم بل وعدهم الله تعالى أن يدخلوا مكة عمارا، أرى الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم في منامه أنهم سيدخلون مكة محلقين ومقصرين، وبشر النبي صلى الله عليه وسلم صحابته بهذه البشارة العظيمة، والصحابة يتلقون خبره عليه الصلاة والسلام بالتسليم، كل ما يراه النبي صلى الله عليه وسلم حق، يخرج النبي صلى الله عليه وسلم مع صحابته قاصدا العمرة،

تبدأ حرب الأعصاب كما يقال يبدأ التوتر مع كل مفصل تأريخي متعلق بهذه الحادثة، يأتي خالد بن الوليد على رأس جيش يريد اعتراض جيش النبي صلى الله عليه وسلم، يستشير النبي أصحابه في المواجهة أم لا، أبو بكر

يشير عليه ما قصدنا الحرب إنما أردنا العمرة، فيغير النبي صلى الله عليه وسلم طريقه إلى طريق آخر يجنب الجيش الصدام بجيش خالد،

يصل إلى الحديبية فتقف ناقته، خلأت القصواء ما خلأت القصواء وما ذلك لها بخلق، يعسكر النبي صلى الله عليه وسلم في الحديبية، وتبدأ المفاوضات بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين كفار قريش، وتحصل المناوشات بل والاقتتال والأسرى ويحصل تبادل الأسرى، ويرتفع مع كل لحظة منسوب التوتر، تخيل وصلوا إلى لحظة معينة أن النبي صلى الله عليه وسلم يعرض على عمر بن الخطاب أن يخرج كمفاوض لجيش المسلمين، فيعتذر عمر بشدة عدواتهم له لكن أخرج لهم عثمان فهو مقبول عندهم، لأنه من كبرائهم ومحبوب عندهم ، تخيل أن الأم تلاعب طفلها وتقول له أحبك الرحمن محبة قريش عثمان، حتى يدرك الإنسان محبة قريش لعثمان بن عفان رضي الله عنه،

أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان، استقبلته قريش بحفاوة وعرضوا عليه الطواف فحلف ألا يطوف إلا إذا طاف النبي صلى الله عليه وسلم، بدأت المفاوضات بين عثمان وقريشا وطالت المفاوضات، وخرجت إشاعة أن قريشا قد قتلوا عثمان، تخيل الآن أين وصل التوتر عند النبي والصحابة، جمع النبي الصحابة وهم ألف وأربعمائة تحت شجرة الرضوان يبايعهم على الصبر والموت وألا يفروا، بمعنى آخر وصلت حالة الشحن النفسي أنهم سيدخلون مكة سيدخلون، يدخلون ولو بالقتال والنبي يبايعهم على الموت وألا يفروا،

ثم تبلغ الشائعة قريشا فيخرجون عثمان رضي الله عنه، حتى لا تتطور الأحداث إلى ما يمكن أن تتطور إليه، ويرسلون مفاوضا وهو سهيل بن عمرو رض الله عنه الذي أسلم بعد ذلك ووقف موقفا ثبت فيه أهل مكة،

تخيلوا موقف الصحابة لما رأوا سهيل، ويقول النبي للصحابة سهل أمركم، مالمتوقع من مشاعر الصحابة؟ البهجة والفرح أن الذي وعدوا إياه من دخول مكة سيكون، تبدأ المفاوضات بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين عمرو ويتفقون على الخطوط العريضة، يكتب علي رضي الله عنه صيغة الصلح بين الطرفين والنبي صلى الله عليه وسلم يملي بنود الصلح،

مع كل كلمة من بنود الصلح يرتفع منسوب التوتر عند الصحابة، لا بد يستحضر الإنسان كيف كانت المشاعر مشحونة وكيف كانت مع كل خطوة ممانعة تمارسها قريش يرتفع منسوب التوتر عند الصحابة،

يقول النبي صلى الله عليه وسلم لعلي اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فيقول سهيل لا نعرف الرحمن الرحيم اكتب بسمك اللهم، الصحابة يزدادون توترا فيقول النبي صلى الله عليه وسلم اكتب بسمك اللهم، هذا ما صالح عليه محمد رسول الله فيقول سهيل لو نعلم أنك رسول الله ما صددناك ولكن اكتب محمد بن عبد الله، فيزداد الصحابة غيظا،

ثم يمضي الكتاب ما تصالح أن يدخل المسلمون مكة، فيقول سهيل والله لا تحدث العرب أنكم دخلتموها عنوة، ولكن من العام القابل تدخلون، نحن نتكلم عن سفر طويل بعيد، وعن جهد كبير وعن شحن نفسي كبير، هل كان الصحابة يتخيلون أن المفاوضات ستكون إلى هذه النتيجة، أن تعتمروا العام القابل لو تيسر لكم، هذا وهم في مشارف الحرم،

لماذا هذا التعنت من قريش؟ بطبيعة الحال يزداد الصحابة غيظا بمجرد الممانعة، فالذي طرأ بالنسبة للصحابة ما كان متخيلا ولا هم مصدقين ما يجري، والنبي يأمر علي بكتابة كذا وكتابة كذا كما يقول سهيل، فكان الحدث مدهشا مزلزلا للصحابة، ثم قدر الله تعالى أمرا في غاية الخطورة، وهو هروب أبي جندل من سجنه الذي كانوا يعذبونه إلى المعسكر الإسلامي، ففرح به الصحابة به وفرح بهم،

وكذلك من البنود المجحفة في حق المسلمين، من جاء من قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم يرد إليهم، ومن جاءهم من المسلمين لا يرد إلى المسلمين، وإلى الآن لم ينته الاتفاق، فيقول سهيل هذا أول ما أصالحك عليه فأطبق هذه البند فيرجع معي، بل وفي بعض الروايات أنه ضربه أمامهم، والنبي صلى الله عليه وسلم يحاول أن يلملم الموضوع فيحقق الاتفاق فيقول يا سهيل لم نفرغ من كتابة الكتاب،

المفترض أن الكتاب للمستقبل ليس الآن لأننا لم نوقع عليه بعد، فقال سهيل إذا لا صلح بيننا، والنبي صلى الله عليه وسلم حريص على إمضاء الصلح لأمر ربه تعالى، فقال رسول الله لسهيل مخاطبا مروءته أجزه لي فقال لا أفعل لا صلح بيننا،

فقال النبي لأبي جندل مصبرا مطمئنا اصبر فعسى الله أن يجعل لك فرجا ومخرجا، وأبو جندل يقول أأرد إلى المشركين، فكيف يكون شعورك في هذه الحال؟ فكيف يكون حال الصحابة في تلك الحال؟ تقول الروايات وهي ترصد حالة التوتر: فلما رأى الناس أبا جندل زادهم شرا إلى ما بهم، هذا مصرح به في الروايات،

تريد أن تعرف ذروة هذا الشر الذي ذكرته الروايات، لاحظ موقف عمر رضي الله عنه، عمر رضي الله عنه من شدة غيظه ذهب إلى أبي جندل فقال له: اصبر واحتسب فوالله ما قتل أولئك المشركين والكلب إلا شيئا واحدا، ويدني سيفه لأبي جندل رضي الله عنه، ويتمنى عمر أن يأخذ أبو جندل السيف فيقتل سهيل بن عمرو،

وبالمناسبة أبو جندل هو ابن سهيل بن عمرو وكان أبو جندل من أبر الناس بأبيه، يقول عمر فظن بأبيه. لكن كيف سيكون الحال لو قتل أبو جندل سهيلا كما كان عمر يتمناه،

انتهى التعاقد وتمت المفاوضات، أريد أن نستشعر كيف كان حال الصحابة في ذلك الوقت؟ أنا أتصور أنها مشاعر ذهول، مشاعر الذي لم يصدق ما جرى،

ولمعرفة مشاعرهم خذوا موقف أجرأ الصحابة على التعبير بتلك المشاعر وهو عمر، عمر في التقاطة تأريخية استثنائية في حياته رضي الله عنه، وهو يحدث عن نفسه بعد ذلك يقول: فعملت لذلك أعمالا، كان شاعرا بحجم الحرج والإشكال الذي وقع فيه، ذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ألسنا على الحق فيقول النبي بلى، فقال أليسوا على الباطل فقال رسول الله بلى، فقال عمر فلم نعطي الدنية في ديننا،

كيف نكون نحن على الحق وحصل علينا هذه الشروط المجحفة، يعني هناك إشكال عند عمر، فيقول له النبي صلى الله عليه وسلم مطمئنا: إني عبد الله ولن يضيعني، فيقول عمر ألم نوعد بأننا سنأتيه ونطوف فيه فيقول له النبي صلى الله عليه وسلم فإنك آتيه ومطوف به ولم أعدك أن تأتيه عامك هذا، فهذا موقف غريب من عمر رضي الله عنه ولولا أنه المحدث الملهم القريب من النبي صلى الله عليه وسلم، لما جرأ أن يقف هذا الموقف،

وأنا أزعم أن كثيرا من الصحابة كان يعتمل في نفوسهم ما كان يعتمل في نفس عمر، لاحظوا موقفا غريبا لعمر جدا، عمر ذهب إلى أبي بكر، وهذا حدث استثنائي من عمر، يعني كان المظنون بعمر أن يذهب إلى أبي بكر أولا فإن لم يطمئن لجوابه ذهب إلى النبي صلى الله علي وسلم، أما أن يذهب إلى النبي ثم إلى أبي بكر فيقول له كما قال للنبي صلى الله عليه وسلم،

فيقول له أبو بكر إنه رسول الله ولن يضيعه فاستمسك بغرزه فإنه على الحق، الإمام بن القيم في روضة المحبين يتكلم عن حجم التطابق الروحاني بين شخص النبي صلى الله عليه وسلم وشخص أبي بكر، يقول ما في تحضير مسبق بين النبي وأبي بكر، فيجيب أبو بكر بنفس جواب النبي صلى الله عليه وسلم، مشهد عجيب وهو يؤكد في كل حالة وموقف أنه أبو بكر الصديق، حتى في الحديبية هو الصديق،

يقول عمر ألم يقل الرسول أننا سنعتمر فيقول أبو بكر أقال لك أنه في عامك هذا، نفس الجواب الأمر مذهل، يأمر النبي الناس كما هو عروف بالتحلل وهو حلق الرأس وذبح والهدي، يقول الراوي والله ما تحرك منا رجل واحد، فيدخل النبي صلى الله عليه وسلم مغضبا فتسأله فيقول ألا ترين أني آمر بالأمر فلا أطاع، هذا حدث استثنائي في حياته صلى الله عليه وسلم، هل يعقل أن يسمع الصحابة الأمر المباشر منه صلى الله عليه وسلم ثم لا يطيعون، فقالت أم سلمة رضي الله عنها كما هو مشهور أدع حالقك واذبح هديك، فخرج ففعل ذلك، فبادر الناس يحلق بعضهم بعضا، وكاد بعضهم يقتل بعضا من الهم، وهذا يبين شدة ما كانوا عليه من التوتر،

حتى عمر رضي الله عنه كان شاعرا بحال الحرج الذي وقع منه، حتى كان يقول في العودة إلى المدينة ـ وعمر رجل عجيب ـ سأل النبي سؤالا فلم يجبه فكرر ثلاث مرات والنبي صلى الله عليه وسلم لم يجبه، فقال ويحك يا عمر زيرت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات فلم يجبك، يعني ألححت عليه وسألته فلم يجبك،

قال فتقدمت بفرسي مقدمة الجيش خشية أن ينزل في وحي ـ يعني أراد أن يغيب عن النبي صلى الله عليه وسلم خوفا من نزول الوحي بشأنه، يقول فغذا مناد ينادي يا عمر فقدم على النبي فلاحظ كمال رحمة النبي صلى

الله عليه وسلم، لما نزلت سورة الفتح أراد النبي أن يطمئن عمر، وكأنه يقول له لم ترض بما خاطبتك به، اسمع كلام الله تعالى (إنا فتحنا لك فتحا مبينا) فقال عمر أفتح هو يا رسول فقال رسول الله نعم،

أين موطن الشاهد من القصة وما هي العبرة؟ الذي عبر عن الشاهد والعبرة منها بدقة هو أحد الصحابة المشاهير اسمه سهل بن حنيف رضي الله عنه، قال في يوم الجمل ينصح بنصيحة معبرة عن الروح التي كانت في الحديبية، عن اختبار الحديبية المعبر عن الابتلاء والتسليم، يقول: يا معشر التابعين اتهموا الرأي، فلقد رأيتني يوم الحديبية في أمر أبي جندل، لو أستطيع أن أرد على رسول الله أمره لرددته عليه،

يقول لو أفضيت إلى موقف عندك الوحي فيه وعندك الرأي فقدم الوحي، لم؟ لأننا كنا في موقف معين مستيقنين من صوابنا، ثم بان لنا أن الخير كله فيما اختاره الله لنا واختاره رسوله صلى الله عليه وسلم، يعني لو بالمصطلح الآن لو قيل للصحابة صوتوا لكانت الأغلبية الساحقة نريد أن ندخل عمارا، ولو كانت حربا لا نريد هذا الصلح.

طيب مالبركات التي رتبها الله تعالى على هذا الصلح؟ ولاحظوا أن العجيب هذه البركات حتى بالجوانب الإحصائية، والإحصاء عند الأمة قديم، الزهري رحمه الله تعالى يتحدث في هذه الالتقاطة التأريخية العجيبة، عدد من أسلم من صلح الحديبية أكثر ممن أسلم من بعثته صلى الله عليه وسلم إلى صلح الحديبية،

لما حصل نوع من أنواع الارتياح من الحرب بين الطرفين، تمهد للنبي صلى الله عليه وسلم من مسارات الدعوة مما دخل في الدين أكثر من عدد من مضى، هذه بركة إلهية ما كان الصحابة يظنون أنها ستقع، وحصل أيضا اعتراف من المعسكر القرشي بالمعسكر الإسلامي، قدر الله تعالى تعالى مبررا لفتح مكة، فلولا صلح الحديبية ما فتحت مكة،

لماذا؟ لأنه صارت اتفاقيات في الصلح خالفتها قريش، فصار النبي صلى الله عليه وسلم معذورا عن العرب كلهم أن يدخل مكة فاتحا، تخيلوا لو أراد النبي صلى الله عليه وسلم فتح مكة قبل صلح الحديبية، كان سيدخل في حرب مع العرب كلهم، لأنهم لن يقبلوا الحرب على أهل مكة، لكن لما حصل الغدر من قريش وعلمت العرب الغدر منها ترك العرب نصرها،

أبو جندل في فترة الصلح يخرج مهاجرا فيصل المدينة، فترسل قريش رجلين لأخذه فيرده النبي معهم ولما وصلوا أطراف المدينة أخذ أبو جندل سيف أحدهما وقتله، ثم رجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ولما علم أن النبي سيرده إليهم حسب الاتفاق خرج إلى منطقة تسمى سيف البحر، فتسامع المسلمون في مكة فخرجوا إلى أبي جندل فكونوا جماعة تقطع الطرق على قريش وتأخذ تجارتها، فاضطروا أن يبعثوا وفدا ليزيل الشرط الجائر الذي اشترطوه،

بعد هذا تخيلوا كيف سيكون تسليم الصحابة لله ولرسوله، هذه المواقف والمشاهد زادت إيمانهم وتسليمهم، وأن ما كانوا مقدرين له بعقولهم ورأيهم لن يحصل به تلك البركات بسبب تسليمهم لأمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم،

فتلك المعارضة الكبيرة جدا أول الأمر، قدر الله تعالى أمرا يكشف لهم أنه كانت التقديرات العقلية القطعية المتوهمين لها، هي مصالح ملغاة في مقابل المصالح الضخمة والكبيرة التي أهداهم الله تعالى في مقابل هذا الصلح. وبالتالي من الطبيعي بعد هذا الموقف، أنهم ربوا على أن أي أمر يأتي من الله تعالى أو رسوله، فإنهم يتلقونه بكامل التسليم، وصار هذا الدرس العميق الذي عبر عنه بعبارة جميلة سهل بن حنيف رضي الله عنه،

القضية الأخيرة:

وهي قصة قصيرة تعبر عن قضيتين الأولى: البركة الإلهية التي تعبر عن البركة العظيمة التي تترب على من يكمل مقام التسليم لله تعالى، والمقام الإيماني الرفيع الذي كان الصحابة يطالَبون بتحقيقه،

القصة أن أحد الصحابة وهو أبو رافع رضي الله عنه كان له قدر يطبخ فيه فمر به النبي صلى الله عليه وسلم، فسأله رسول الله ما في القدر يا أبا رافع فقال شاة أهديت لنا يا رسول الله، فقال رسول الله ناولني الذراع فناوله فأكله رسول الله ثم قال ناولني الذراع الآخر فناوله فأكله، ثم قال ناولني الذراع يا أبا رافع، فقال يا رسول الله الشاة لها ذراعان،

فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم لو سكت يا أبا رافع لناولتني ذراعا بعد ذراع ما سكت، يعني لو استطعت أن تحقق هذا المقام الإيماني، لو تجاوزت السؤال وسلمت وفتحت القدر كان وجدت ذراعا آخر وذراعا آخر حتى تتكلم.

لاحظ البركة الإلهية في التأثير في الماديات، يخلق حالة من حالات خوارق العادات، ويعبر كذلك عما كان يريده رسول الله صلى الله عليه وسلم من صحابته من تحقيق مستوى إيماني رفيع.

الدعاء ... وصلى الله على نبينا محمد.